أَلتَّفسيرُ الهِرْمِنْيوطِيقيُّ الفَلْسَفيُّ والتَّفْسيرُ الموْضوعيُّ عِنْدَ الشَّهيدِ الصَّدر

(دراسة مقارنة)

د. بشيـــــر المالكي

فحوى البحث

التفسير الموضوعي عند الشهيد محمد باقر الصدر فيما يمثله من رؤية مميزة في أسلوب تفسير القرآن من خلال التوظيف الهادف للنص القرآني وتثوير النص المتعالي في استشفاف موقف السماء من تجربة الأرض وأهمية النظرية المعاصرة التي طرحت في مجال تفسير النص وفهمه أو تأويله، وهي الهرمنيوطيقا أو التأويلية الفلسفية لما لها من تأثير كبير في البحوث الجديدة حول المعرفة الدينية وتفسير النص الديني، بل كانت الأكثر تأثيراً في هذا المجال من غيرها من النظريات الهرمنيوطيقية في بعض القضايا المطروحة في الوسط الإسلامي.

المقدمـــــة:

منذ القديم وحتى يومنا هذا وفـدت الكثير من التيارات والاتجاهات الفكرية والثقافية الفلسفية والسياسية والمذاهب الاقتصادية وأمثالها على العالم الإسلامي.

ففي السـابق وفدت على المسلمين الفلسفة اليونانية، وأمثالهـا، وفي عصرنا هبّت على العـالم الإسلامي الكثير من هذه التيـارات والمذاهب، الداروينية، والفرويدية والاشتراكيـة والماركسية والوجودية، والعلمانية، والليبرالية وأمثالها من التيارات والنظريات التي نشأت في الغرب ثم امتدت إلى الشرق وإلى المسلمين من العرب وغيرهم، وربما تأثر البعض فيها.

ولعل من أن أهم التيارات الجديدة التي تغزو العالم بصورة عامة، والعالم الإسلامي بصورة خاصـة في المرحلة الراهنة، التعددية الدينيـة (البيلواليزم الديني)، وبعض الآراء في تغير الشريعـة والأحكام والتي ترجع في جوهرها إلى بعض النظريات في فهـم النص أمثال الهرمنيوطيقا الفلسفيـة القائلة بتعدد القراءات ونسبية المعرفة.

وهذا البحث يمثل محاولة علميـة للمقارنة بين أسلوب التفسير الموضوعي عند الشهيد الصـدر وبين علم تفسير النصوص الهرمنيوطيقي الفلسفي.

فما هي نقـاط التلاقي والافتراق بينه وبين هذه النظريات المعاصـرة في فهم النص وتفسيره، خصوصـا تلك التي لها تأثير بارز في فهـم النص الديني حتى ضمن الدائرة الإسلاميـة، متمثلة بالهرمنيوطيقا الفلسفيـة والتي لها من أهمية بارزة في الواقـع المعاصر عند بعض المفكرين المسلمين المعاصرين.

والملاحظ في الدائرة الإسلامية أن هنالك اتجاهات مختلفة بخصوص كيفية استخدام منهج الهرمنيوطيقا في فهـم النصوص الدينيـة المقدسـة، فالبعض يرفض ذلك المنهج جملة وتفصيلاً، بينما يؤيده البعض الآخر بكـل قوة، لكن المهم هنا هو أن يتم التعامل مع مثل هذا الأمر بلغة العقـل والمنطق، ومن هنا فإن المنهج الذي علينا اتباعه ينبغي أن يتلاءم مع نوع النص المراد تفسيره وفهمـه

(القرآن الكريم) ويطابق المنطق العقل والاستدلالات المنطقية والعقلية.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي في عرض أصل وحقيقة كل من التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر (ت ١٩٨٠م) للقرآن الكريم. وكذلك نظرية الفهم في الهرمنيوطيقا الفلسفية عند «غادامر» (١٩٠٠م) واعتمد المنهج المقارن مقارنة ونقد المباني والأسس المعرفية النظرية في معالجة مقولة التفسير عند كل منهما.

فرضية البحث:

إن مصطلح الهرمنيوطيقا الفلسفية الذي يعود إلى جذر فكري وفلسفي غربي وله حدود دلالية مختلفة، يمكن معادلته ومقاربته بمصطلح التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر في الفكر الإسلامي.

إن نظرية الهرمنيوطيقا الفلسفية الحديثة تنبع أهميتها بالذات من جهة أن لها علاقة بإشكالية مهمة تحكم فهم المفسرين والفقهاء المشرعين وهي المقدمات الذهنية المسبقة والمستسقاة من العلوم المختلفة التي تشكل الخلفية الفكرية الثقافية لهؤلاء المشرعين حيث تترك أثرها على النص الديني المراد تفسيره، فالبلاغي ذي المقدمات البلاغية عندما يستنطق النص في محاولة لتفسيره سيجد جوابا له في الآيات، وكذلك الفيلسوف والعارف أو حتى ذلك الطائفي أو المغالي أو داعية السلم أو الحرب يجد الآيات داعمة لما يعتقد به؛ لأنه يقرأ المعاني وفق تصوراته وخلفياته الثقافية، كل هؤلاء إنما يتحركون وفق المقدمات المسبقة في أذهانهم فيفسروا القرآن على أساسها ولذا فكلهم بحاجة إلى تنقيح تلك المباني قبل القيام بعملية فهم النصوص، وهذه الوظيفة هي تحديداً علم الهرمنيوطيقا؛ لأنّ بحوث هذا العلم تبيّن ضرورة تنقيح مقدّمات ومقوّمات تفسير النصوص الإسلامية وخاصة في عملية الاجتهاد وبالتالي يمكن تقديم تفسير مقبول للإسلام في هذا العصر. ولذا لابد من الانفتاح على علم الهرمنيوطيقا ودراسته واستثماره في هذا المجال.

كما أنه من الضروري الاطلاع على آليات الفلسفة الغربية في مجال قراءة

النص، كالهرمنيوطيقا (علم تفسير النص) وغيرها كنظرية الأفعال الكلامية والفينومنيولوجيا (علم الظواهر)، والبنيوية والتفكيكية، لتحديد مدى إمكانية الإفادة من بعض تلك الآليات، والمحاذير التي قد تتمخض عن تطبيقها على النصوص المتعالية كالقرآن الكريم.

هدف البحث:

هدف هذه الدراسة هو محاولة معرفة نقاط الافتراق والتلاقي بين الهرمنيوطيقا الفلسفية والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر رضي الله عنه.

والهدف من هذه المقارنة والمقاربة إنما هو لغرض دفع شبهة طالما ألصقت بالتفسير الموضوعي والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر وقام عليها أصل فكرة الهرمنيوطيقا وهي أن أسلوب التفسير الموضوعي عامة والسيد الصدر بالخصوص من خلال الإتيان بالموضوع المراد بحثه من واقع التجربة البشرية هو تفسير نسبي خاضع للزمان والمكان؛ ولذا لابد من تحديد الخطوط الفاصلة بين الهرمنيوطيقا التي قالت بنسبية المعرفة مطلقاً وبين التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر.

كما إن هدف البحث هو التفريق بين التفسير الموضوعي والهرمنيوطيقا بهدف نفي كون القرآن نتاج ثقافي يناسب عصره فقط وبالتالي إثبات خلود الدين الإسلامي وشريعته وقيموميته على غيره.

خطة البحث:

البحث مرتب على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، وقد عقد الفصل الأول لبيان البحوث التمهيدية، والمتمثلة باصطلاحات عنوان البحث، من قبيل ما المراد بمقولة التفسير والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر.

وتناول البحث أيضا مصطلح الهرومنيوطيقا وتحديداً الهرمنيوطيقا الفلسفية، وما يتضمنه من بعد دلالي في واقعه الثقافي وفي خارج سياقه الثقافي (سياق الثقافة العربية الإسلامية).

كما تم التطرق للمراحل التاريخية التي مرت بها الهرمنيوطيقا حتى انتقلت من نظرية لمعرفة القواعد التفسيرية للنص المقدس إلى نظرية لفلسفة الفهم، وكيف

اتسعت لتشمل كل النصوص حتى غير الدينية بل وكل العلوم الإنسانية والسلوك الإنساني.

أمَّا الفصل الثاني فجاء ليعالج موضوع الأسس المعرفية النظرية التي قام عليها كل من التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والهرمنيوطيقا الفلسفية.

فما هي المبادئ والأسس الأساسية لكل من التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والهرمنيوطيقا الفلسفية ومعالم نظرية «غادامر» (ت ٢٠٠٢م) على وجه الخصوص.

أمَّا الفصل الثالث فتم من خلاله عقد مقارنة بين التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والنظرية الهرمنيوطيقية الفلسفية في مقولة التفسير بهدف معرفة نقاط التلاقي والافتراق فيما بينهما.

كما تضمن في مبحثه الأخير الإشكالات والمناقشات التي يمكن إيرادها على كل من التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والهرمنيوطيقا الفلسفية في اعتمادهما كأسلوب ومنهج في تفسير القرآن الكريم.

ثم جاءت الخاتمة لتبين أهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأول:

مصطلحات عناوين البحث:

المبحث الأول:

التفسير الموضوعي لغة واصطلاحاً:

أولاً: معنى التفسير لغة:

أ. **التفسير لغة**: ذكر أرباب المعاجم اللغوية بأن التفسير لغة له معاني متعددة كالبيان والإيضاح والإظهار، ومنشأ ذلك هو اختلافهم في تحديد الأصل الاشتقاقي الذي جاءت منه كلمة -تفسير-، فمنهم من ذهب إلى أن الجذر هو (الفسر)، بمعنى الإبانة وكشف المغطى، يقال: فسر الشيء: يفسره فسراً، أي: أبانه وكشف عنه[1]، قال صاحب لسان العرب: الفسر البيان وفسره أبانه، والتفسير مثله، وقال ابن الأعرابي: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن المعنى المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر[2].

ومنهم من ذهب إلى أنه مقلوب

الجذر عن (السفر)، فيقال: سفرت المرأة سفوراً، إذا ألقت خمارها عن وجهه فهي سافرة[٣].

وعلى الرغم من الاختلاف في الأصل الاشتقاقي للكلمة، إلا أن المعنى اللغوي متقارب على كلا الرأيين؛ لأن كلاهما يحمل معنى: الكشف وإزاحة الستار والغطاء.

وهو ما يتفق مع معنى التفسير في القرآن الكريم، نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[سورة الفرقان:: ٣٣].

ب. التفسير اصطلاحاً:

وقد عرف بتعريفات متعددة:

١. (هو علم يُفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمَّدﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه)[٤].

وأورد عليه: أن التعبير بالفهم لكتاب الله تعالى أعم من التفسير الذي هو مجرد الكشف وإزاحة الستار عن مقصود الله تعالى في آيات القرآن الكريم.

٢. (التفسير هو: إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز)[٥].

ويلاحظ على هذا التعريف بأنه مجرد تعريف لغوي.

٣. (التفسير هو: بيان معاني الآيات القرآنية، والكشف عن مقاصدها ومداليلها)[٦].

ويتميز هذا التعريف بالإضافة لاشتماله على بيان معاني الآيات القرآنية الكشف عن مقاصدها ومداليلها، وهذا ما يمثل غرض أساسي يتوخاه المفسر وعليه فهو أفضل من التعريف الثاني.

ثالثا: التفسير الموضوعي في اصطلاح المفسرين.

هنالك اختلاف في المقصود من التفسير الموضوعي بحسب المراد من الموضوعية فيه.

فمثلا الشهيد الصدر رحمه الله يرى أن التفسير الموضوعي هو ما يقابل التفسير التجزيئي وعرفه: بأنه المنهج الذي يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية. فيبين ويبحث ويدرس)[٧].

ويراد من الموضوعية لديه ما نسب إلى الموضوع حيث يختار المفسر موضوعا

معيناً ثم يجمع الآيات التي تشترك في ذلك الموضوع، فيفسرها، ويحاول استخلاص نظرية قرآنية منها فيما يخص ذلك الموضوع)[٨].

وبذلك يتضح أنه ليس كل عملية عزل وجمع للآيات هي تفسير موضوعي فمثلا أبحاث علوم القرآن هي لا تعد من مصاديق التفسير الموضوعي لأنها تبحث في شأن القرآن لا في تفسيره.

ويُلاحظ على تعريف الشهيد الصدر أنه عبر عن التفسير الموضوعي بالمنهج وكان يقصد به معناه اللغوي لا معناه الاصطلاحي، لأن المنهج في اصطلاح علماء القرآن هو مجموعة الوسائل والأساليب التي يعتمدها المفسر في معرفة مراد الله تعالى من كتابه الكريم. وكما هو معلوم فإن التفسير الموضوعي هو أسلوب في تفسير القرآن وليس منهج تفسيري مستقل في مقابل المناهج التفسيرية الأخرى كالمنهج الاجتهادي أو الإشاري أو الروائي المحض مثلاً.

المبحث الثاني:

الهرمنيوطيقا لغة واصطلاحاً:

أولاً: الجذر اللغوي للهرمنيوطيقا:

على الرغم من الاتفاق من أن كلمة هرمنيوطيقا في أصلها ترجع إلى اللغة اليونانية إلا أنه اختلف في تحديد المادة اللغوية الأولى والجذر اللغوي لكلمة «هرمنيوطيقا» «Hermeneutic»، فبعضهم يرى أن كلمة «هرمنيوطيقا» مشتقة من الفعل اليوناني «Hermeneuie» بمعنى التفسير، في حين يرى آخرون أن المصطلح مأخوذ من كلمة «Hermeneutikikos» بمعنى التوضيح وإزالة الغموض من الموضوع.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: (الهرمنيوطيقا هي مشتقة من الكلمة (Hermeneuin) بمعنى (يُفسر أو يوضِّح)، في علم اللاهوت، حيث كان يقصد بها ذلك الجزء من الدراسات اللاهوتية المعني بتأويل النصوص الدينية بطريقة خيالية ورمزية تبعد عن المعنى الحرفي المباشر، وتحاول اكتشاف المعاني الحقيقية والخفية وراء النصوص المقدسة)[٩].

وهنالك من يرى أن هذا المصطلح

اشتق من كلمة (هرمس) في اليونانية باعتبار أن هناك ارتباطاً في الجذر المعرفي بين الهرمنيوطيقا وبين هرمس رسول الآلهة عند الإغريق، وهو الملاك الذي ينقل رسائل الآلهة وتعاليمها إلى الأرض[١٠]. ثم فسمّيت عملية تفسير أيّ متن ونداء بذلك[١١].

ويرجع هذا الارتباط بين هرمس والهرمنيوطيقا إلى طبيعة الرسول بوصفه وسيطاً يقوم بمهمة الشرح والتوضيح لمضمون النص إلى المخاطب به، ما يجعل الأمر يدور بين نص ومفسر لهذا النص، ثم تطور الأمر عند اللغويين، وأصبح يسمّى (ذانتبرتسيونيك)، أي: قضية التفسير[١٢].

ثانياً: الهرمنيوطيقا الفلسفية اصطلاحاً:

من اللازم لمعرفة معنى الهرمنيوظيقا بمعناها الاصطلاحي أن نتعرف على فهم نظريات هذا العلم بشكل إجماليوما عرضها من تغيير خلال التاريخ إلى عصرنا الحالي إلا أن الدخول في تفاصيل تلك النظريات هو خارج عن محل البحث.

وقد ذكرت تعاريف اصطلاحية متعددة ومختلفة للهرمنيوطيقا من قبل أصحابها، ولكنها تعريفات متفاوتة ومختلفة حسب الاتجاهات والمراحل التي تنقّل وتطور فيها هذا المصطلح، أمثال (علم تفسير الكتاب المقدس) عند أنصار الكنيسة، (علم تفسير النصوص عامة) مارتي كلاديتوس (ت ١٧٥٩)، (العلم بقواعد فهم النصوص) كما عند (أغوست ولف) (ت ١٨٠٧م)، (منهج المنع أو تجنب سوء الفهم)، كما عند «شلاير ماخر»(١٨٤٣) وبعضهم سمى نظرية شلاير ماخر بـ(الهرمنيوطيقا العامة)، (منهج المعرفة في العلوم الإنسانية) كما عند (ديلتاي) (ت ١٩١١م)، (البحث عن حقيقة الفهم وفلسفته) كما عند هيدجر (ت ١٩٧٦م)، وغادامر (ت ٢٠٠٢م)[١٣]. حيث عرف الهرمنيوطيقا بأنها سلطة بعض المسائل الفلسفية على فهم النص[١٤].

وهذه التعريفات متفاوتة ومتباينة فبعضها اعتقد بأهمية البحث عن فهم المؤلف، وبعضها اعتقد بوجود معنى

نهائي ثابت للنص، وبعضهـــا وهي الهرمنيوطيقا الفلسفية -آخر وأشهر نظرية معاصرة في هذا العلم -أنكرت وجود معنى نهائي مطلق وثابت للنص ولا أهمية عندها لفهم المؤلف، وإنما المهم فهم القارئ وتفسيره، فتتعدد القراءات بتعدد القرّاء، ولذا لا يمكن أن يذكر للهرمنيوطيقا تعريف واحد، لتعدد الآراء في تحديدها، من حيث الموضوع والهدف وما عرض ذلك المصطلح من تغيرات وتطـورات خلال تاريخها. والفكرة الأساسية الجامعة بين تعاريف الهرمنيوطيقـــا عموما هي قراءة النص، ومحاولة الحصول على الفهم الكامل للعبارة في الموارد التي يكون فيها إبهام وغموض[١٥].

المبحث الثالث:

التفسير الموضوعي والهرمنيوطيقـــا الفلسفية في السياق التاريخي.

والهدف من تناول السياق التاريخي لكل من العلمين هو الوصول إلى المعنى المراد والمقصود من كلا الاصطلاحين وما مرا به من مراحل وتطورات زمنية حتى وصلا إلى ما هما عليه الأن.

المطلب الأول:

التفسير الموضوعي جذور المصطلح ودلالات المعنى:

هنالك اعتقاد سائـد عند البعض أن أسلوب التفسير الموضـوعي من المناهج المستحدثـة والطارئة على ميدان التفسير القرآني والتي لم تظهر إلا في العقـــود الأخيرة، ولذا من العبث البحـــث عن جذور هكذا مصطلـــح في تراث السلف فإن هذا المصطلح لم يظهر (إلا القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قســم التفسير بكلية أصول الدين بالجامـع الأزهر)[١٦]، كما امتازت بعض دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم بأنها انتهجت هذا النهج[١٧].

ولكن ينبغي الالتفات إلى مسألـــة مهمة وهي أن المهم في البحث العلمي هو المصطلح عليه وليس المصطلح، والملاحظ أن منهـــج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم منهج قديم كما أنه ليس في العلوم علم ينشأ مكتملاً لأن مسألة تكامل العلوم وتطورها هي سنة تاريخية لا تتخلف.

ولذا فـإن الحديث عن منهج أو

أسلوب التفسير الموضوعي لا يشذ عن تلك السنة، فهو منهج قديم ولكن مسألة أخذ الموضوع من خارج القرآن وأن المراد بالموضوعية في التفسير الموضوعي هو الواقع والخارج من هو أمر جديد ومغاير للمراد من الموضوع في التفسير الموضوعي المشهور في عرف أهل الاختصاص من خلال طرح مسألة في رحاب القرآن ويستخرج الآيات التي تناولت تلك المسألة أو الدراسات التي تتبع مصطلحا قرآنياً بوصفه اصطلاحا دالاً على معنى ما لا بوصفه مسألة من المسائل التي طرحها القرآن الكريم.

ويرجع بعض الباحثين جذور هذا الأسلوب -أخذ موضوع أو مسألة من الواقع والتجربة البشرية -إلى الدكتور محمَّد عبد الله دراز (ت) في أطروحته التي دافع عنها عام ١٩٤٧م. ونشرت فيما بعد تحت عنوان (دستور الأخلاق) بحسب الترجمة العربية عام ١٩٧٣م.

والمنقول أن الشهيد الصدر كان يواكب كتابات الدكتور دّراز، فلعل اطلاعه على هذه الفكرة ساهم في التنظير لها ببضع محاضرات[١٨].

وقد تجلى هذا النهج الجديد في التعامل مع القرآن عند الشهيد الصدر من خلال اشتماله على عنصر التشبع بالتجربة البشرية وعرضها على القرآن الكريم لا لكي يكون تفسير النص القرآني على أساس الواقع، بل لاستكشاف موقف النص تجاه الواقع من خلال التوحيد بين التجربة البشرية والنص القرآني في سياق واحد.

وهنالك من ذهب من الباحثين إلى أن الشهيد الصدر هو أول من استخدم مصطلح الموضوعية بهذا المعنى وأن تجربة الشهيد الصدر غير مسبوقة[١٩]، ناقلًا بذلك التفسير الموضوعي إلى مستوى أعمق وإن لم يرفض التفسير الموضوعي المشهور في طرحه المسائل في رحاب القرآن الكريم.

كما عدّها الباحث الأردني حسن العمري (نقلة نوعية في مسار التفسير القرآني في التاريخ الإسلامي)[٢٠].

المطلب الثاني:

الهرمنيوطيقا الفلسفية جذور المصطلح ودلالات المعنى.

أولاً: السياق التاريخي لمصطلح الهرمنيوطيقا:

ونتعرض لأهم النظريات في الهرمنيوطيقا، حسب مراحلها الزمنية وسنؤكد أكثر على نظرية (غادامر) لأنها هي الأكثر شهرة ونفوذا وحداثة وتأثير في العصر الحديث، في مختلف مجالات تأثير الهرمنيوطيقا وخاصة في تفسير النصوص والنص الديني بخاصة.

الهرمنيوطيقا مصطلح قديم إذ يقال أن أول من استخدمه أرسطو كجزء من أجزاء المنطق، ويعني «العبارة». ثم تطور معناه ليكون (تفسير العبارة) في باب منطق القضايا من كتابه «الأرغنون».

وفي القرون الوسطى استخدم المصطلح بمعنى تفسير وتأويل الكتاب المقدس، إذ ظهر في اللاهوت الكنسي بمعنى مجموعة القواعد التي يعتمد عليها المفسّر في فهم النص الديني (الكتاب المقدس) حيث يشير إلى مجموعة من القواعد التي يجب أن يتبعها المفسر لتفسير النص الديني (الكتاب المقدس)، إلا أن هذا المصطلح استخدام فيما بعد في العالم الغربي (وبالتحديد ألمانيا)، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بمعنى ومفهوم آخر وبدأ مفهومه يتسع بالتدريج فشمل دوائر أخرى تستوعب بجوار الدراسات اللاهوتية العلوم الإنسانية والنقد الأدبي وفلسفة الجمال والفولكلور، ثم توسع ليشمل تفسير مطلق النصوص، وقد طبع أول كتاب باسم (الهرمنيوطيقا) عام ١٦٥٤م، ومؤلفه (دان هاور).

وقد مرت الهرمنيوطيقا في تاريخها بثلاث مراحل، وهي:

أولاً: الكلاسيكية: التي تعتمد طرح منهج لتفسير النص المقدس، أو مطلق النصوص،

ثانياً: الرومانسية: بدأت مع (شلاير ماخر) تعتمد طرح منهج لتجنب سوء الفهم.

ثالثاً: الفلسفية التي تبحث عن حقيقة الفهم وظروف حصوله دون أن تطرح منهجاً للفهم، بينما البعض قسمها لثلاث مراحل:

أولاً: الكلاسيكية لشلاير ماخر وديلتاي.

ثانياً: الفلسفية لهيدجر وغادامر.

ثالثاً: الكلاسيكية المعاصرة، حيث رجعوا للاعتراف بآراء شلاير ماخر.

وهنالك تقسيم آخر للمراحل:

وهي المرحلة المنهجية، والنفسية، والفلسفية.

ولاختلاف الاتجاهات اختلفت التعريفات للهرمنيوطيقا. والذي يهمنا في البحث هي الهرمنيوطيقا الفلسفية حيث يُلاحظ أنه في جميع المراحل ما قبل المرحلة الفلسفية فإن علماء الهرمنيوطيقا كانوا يهتمون بالوصول لقصد المؤلف أو بوجود معنى معين للنص، ولكن في الفلسفية لم تهتم بصحة الفهم أو خطأه وإنما بحثت عن حقيقة الفهم وفلسفته.

ثانياً: الهرمنيوطيقا ودلالة المعنى في الواقع الإسلامي:

مصطلح الهرمنيوطيقا مصطلح له انتماؤه الثقافي المغاير لواقع الثقافة الإسلامية، وهذا الانتماء هو الذي يعطيه مضمونه الدلالي الخاص.

حيث نشأ اصطلاح الهرمنيوطيقا في أجواء لغوية وفكرية، غير الأجواء التي نشأ فيها الفكر الإسلامي ولذا فلا يتوقع أن يبتعد معناه الدلالي كثيراً خارج إطار البيئة التي انتجته وتطور فيها.

كما أنه لا يتصور وجود بعد دلالي في الثقافة العربية الإسلامية لمصطلح الهرمنيوطيقا. ولعل هذا هو السبب الأساسي الذي جعل الكثير من الباحثين لا يترجمون هذا المصطلح إلى ما يقابله في اللغة العربية وذلك باعتبار أن مصطلح الهرمنيوطيقا وما يحمله من مخزون دلالي لا يوجد ما يقابله في الثقافة الإسلامية فهو مصطلح له دلالته المميزة وعنوانه الخاص في الفلسفة الغربية.

وفي الطرف المقابل هنالك جماعة من الباحثين من يرى أنه لا بد من إيجاد مقاربة دلالية بين مصطلح الهرمنيوطيقا ومصطلح آخر في الثقافة الإسلامية تجمع بينهما حالة من الاشتراك في بعض المضامين الدلالية.

ولعل أقرب مصطلحين في الثقافة الإسلامية لهما مخزونهما الدلالي الخاص ومع ذلك يشكلا حالة مقاربة مع مصطلح الهرمنيوطيقا هما مصطلحا التفسير

والتأويل فهما يهتمان بقضية فهم النصوص وتفسيرها أيضاً.

يرى البعض من المختصين بأنَّه من أكثر الأمور تعقيداً في هذا العلم، هو تحديد هويته، من ناحية المعنى، وأي مصلح من المصطلحات العلمية التي تقابله وتلائمه، هل هي تناظر وتشابه التفسير، أو التأويل، أو أنَّ هذا العلم يساوي كلا المصطلحين: التأويل والتفسير[٢١].

ولذا لابد من طرح مصطلح التفسير والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر بالذات وعلاقته بالهرمنيوطيقا وترك جانب التأويل حفاظاً على مسار البحث وموضوعه.

الفصل الثاني:

المبحث الاول:

أصول التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر رحمه الله :

ركز الشهيد الصدر في إيضاح أسسه النظرية في التفسير الموضوعي على ركنين أساسيين، هما:

الأول: الركن الداخلي، وهو القرآن الكريم الذي يرجع إليه المفسر في التفسير الموضوعي لاستخراج الموقف والنظرية القرآنية في موضوع البحث.

الثاني: الركن الخارجي، وهو معلومات المفسر السابقة، والمعتقدات التي وفرتها له الخبرة الإنسانية.

وكما هو معلوم فإن القرآن الكريم هو الركن الأساسي في التفسير الموضوعي عند كل المفسرين المتبعين أسلوب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

ولكن ما يميز الشهيد الصدر عن الكثير من المفسرين التقليديين هو اهتمامه الخاص بالركن الثاني، وهو ما أوجد اختلافاً بينه وبين باقي المفسرين التقليديين، وتشابها بينه وبين بعض ما هو مطروح في علم الهرمنيوطيقا الفلسفية.

ومن أهم أصول ومبادئ التفسير الموضوعي[٢٢] عند الشهيد الصدر رحمه الله وغيره:

أولاً: التحرز من الافتراضات السابقة: بمعنى عدم تحميل القرآن تلك الافتراضات والقبليات، لا بمعنى أن لا تكون تلك الخلفيات الفكرية أو الثقافية هي المنشأ والمنطلق للأسئلة المعروضة على

القرآن الكريم.

ثانياً: القرآن أصل الأصول جميعاً. أي الحاكم على غيره المهيمن على ما سبقه وهو الحاكم عند التنازع في القواعد والفروع.

ثالثاً: القرآن غايـــــة في الإحكام والإتقان. فلا يخالف بعضه بعضاً بل يفسر بعضه بعضا ينطق بعضه ببعض كما ورد في الروايات الشريفة.

رابعاً: القرآن كتاب هداية. كما نطق بنفسه، (هدى للمتقين)، (هدى للناس).

خامساً: عدم تحريف القرآن.

سادساً: إمكانية فهم القرآن وتفسيره.

وهذه الأصول كما هو معلوم منها ما يمكن وضعه تحت عنوان رعاية خصائص القرآن الكريم[٢٣]، ومنها ما يمثل وظيفة القرآن الأساسية وما يُترقب منه الإجابة عليه. ومنها ما يمثل مقدمات ضرورية للتفسير الموضوعي.

الفصل الثالث:

نقاط الافتراق والتشابه بين الهرمنيوطيقا الفلسفية والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر:

يعد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله من مفكري العالم الإسلامي المبدعين في هذا العصر، وله أعمال قيمة في مجالات مختلفة، وقدم أفكاراً مبتكرة ومتناسبة مع النهضة الثقافية والفكرية المعاصرة والحديثة.

يُلاحظ أنه توجد قلـة من المفسرين من وضع نظرية للفهم كالشهيد الصدر، وعادة ما يكون هؤلاء ممن لهم باع في الفلسفة.

وبما أن علـــم الهرمنيوطيقا ما زال يسعى لتحقيق هذا الهدف عبر قرون من الزمن، كان من الممكن أن تساعد تعاليمه المفسرين على تدوين نظرية لفهم النص ونظرية لتفسيره وتدوين منهجية لتفسيره.

المبحث الأول:

نقاط الاشتراك بين التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والهرمنيوطيقا الفلسفية:

ويُلاحظ بالخصوص وجود مبـــاني وأصول عامة مشتركـة كثيرة بين مقولة التفسير الموضوعي للقرآن والهرمنيوطيقا الكلاسيكية، من أهمها:

أولاً: إمكانية الفهم وقابلية التفسير.

ثانياً: محورية النص.

رابعاً: الموضوعية وتشخص المعنى.

خامساً: إمكانية تجاوز الموانع التاريخية للفهم.

سادساً: الاهتمام بالقواعد اللغوية العامة.

سابعاً: ضرورة التحرز من تأثير الفروضات المسبقة.

وأمَّا أهم نقاط تلاقي بين التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر مع الهرمنيوطيقا الفلسفية خاصة، فأهمها:

أولاً: اهتمامه الخاص والمميز بالركن الثاني للتفسير الموضوعي[٢٤]، بالمقارنة مع غيره من المفسرين التقليديين، حيث يعد الركن الخارجي مقدمة تمهيدية للركن الداخلي، فالمفسر في التفسير الموضوعي يهتم بعلوم عصره والخبرات العلمية والمعارف البشرية لفهم أعمق وأدق لمراد الله تعالى وتفسير كتابه، وينطلق بذلك من فكرة (كل من كان حظه من العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر)[٢٥].

وليست حاجة التفسير الموضوعي والتفسير عموماً إلى العلوم ناشئة من نقص في أسلوب بيان القرآن، بل هي قائمة على أساس توفير أرضية الفكر والعقل المناسبين للمفكر الذي يتوخى الكشف عن المفاهيم القرآن الحقيقية، وبيان الرؤية القرآنية الواقعية.

وهذا أمر لاشك فيه فإن إدراك مفاهيم القرآن المتعالية والميزات اللفظية للآيات القرآنية يتطلب قدرة عقلية وفكرية مناسبة، وهذا يتوفر بشكل أفضل في حالة امتلاك المفسر لقدرات علمية أوسع وأدق، لأن قدرة المفسر على فهم الأمور هي حصيلته معرفته[٢٦].

ولهذا نجد الشهيد الصدر كثيرا ما يركز على هذا الركن الخارجي، بل وعد الشهيد الصدر الاهتمام بهذا الركن أمر أساسي لا بد منه للوصول إلى نظريات الإسلام ومواقفه[٢٧].

وبذلك تكون علوم المفسر بمثابة الآذان التي يستمع من خلالها المفسر لصوت الحق القرآني وبقدر ما يكون لديه خبرات أكثر سيكون تفسيره ذا فائدة ومثمر أكثر.

ووجه الشبه هنا بينه وبين الهرمنيوطيقا الفلسفية أنه يشير إلى مقولة هامّة تحتوي

على المواضيع الهرمنيوطيقيّة الهامّة وهي أهمية دور الافتراضات ومعلومات القارئ في عملية التفسير وفهم مراد النص.

وبالتأمّل في هذه المقولة (الركن الخارجيّ) تظهر التشابهات الموجودة بين أفكار هو بين الطرح الهرمنيوطيقيّ. الفلسفي، فكما أنّفي الهرمنيوطيقا تمّ التأكيد فيها على مقولة الافتراضات المسبقة، ومعلومات القارئ، وتأثيرها على عملية الفهم، وتُعرَض مقولات، مثل: قبليات وأولويات المفسر (الدور الهرمنيوطيقيّ)، واندماج الآفاق؛ بوصفها أدوات لهذا الطرح الهرمنيوطيقي؛ ففي فكر الشهيد الصدر أيضاً -تمّ التأكيد على استخدام المواريث العلميّة، والخبرات البشريّة منقِبَل المفسر؛ بوصفها شرطاً أساسياً في التفسير الموضوعيّ، ومن وجهة نظره تمّ عرض مقولات أخرى، من قبيل الاستنطاق ومحاورة النص، يمكن أن نستنتج منها بعض المقولات الهرمنيوطيقيّة كالدور الهرمنيوطيقيّ واندماج الآفاق.

ثانياً: طريقة الشهيد الصدر في التفسير الموضوعي تشابه إلى حد ماطريقة التعامل مع النص عند غادامر بلحاظ اعتمادهما طريقة طرح الأسئلة فكلاهما يطرح الأسئلة على النص.

من البَدَهِي أن معارف الإنسان وخبراته العلمية في نمو متطور وتكامل لا يتوقف، ولذا فإن أسلوب السؤال كل زمان يكشف للإنسان حقائق جديدة وفي مختلف العلوم.

هذه المعرفة المستجدة تمنح الإنسان مستوى عقليًّا ومعرفيًّا جديداً يؤهله لفهم الآيات الوحيانية المتعالية فهماً مغايراً عن فهم الماضين، وتؤهله لطرح أسئلة جديدة أيضاً في ضوء المستجدات والإشكالات الجديدة.

والمفسر الموضوعي للقرآن من خلال اعتماده طريقة طرح الأسئلة ينطلق من مسلمة اعتبار العلاقة بين القرآن والواقع علاقة جدلية معرفية ولذا لا يمكن التفكيك بينهما، مستندا في كل ذلك إلى حقيقة أن القرآن كتاب تدويني للوجود في مجال الهداية والصلاح والوجود كتاب الله التكويني.

ثالثاً: دور وتأثير شخصية المفسر في

تفسير القرآن أو العوامل الذاتية، إذ يشابه الشهيد الصدر أصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفية في الاعتقاد بأهمية تأثير شخصية وخلفية المفسر في تفسير النص، بل وضرورة وجود هذا البعد الذاتي في مجال التفسير الموضوعي.

كما أن مسألة الخصائص الذاتية للمفسر وقبلياته تعد من أهم القضايا في مجال الهرمنيوطيقا خاصة وفي علم التفسير الفلسفي على وجه الخصوص أي دور شخصية المفسر والقارئ للنص في عملية الفهم.

فمثلاً «غادامر» يعتقد أن للبعد الذاتي للمفسر دوراً إيجابياً ومهماً في عملية الفهم.

فالإنسان في الهرمنيوطيقا الفلسفية لا يستطيع من دون قناعاته السابقة أن يدخل إلى عملية الفهم، ولكن مع استمرار هذه العملية، لن يكون محكوما ومحبوساً جراء حكمه المسبق. وهذا الأمر سيخرجه من الحصار الملزم لمعلوماته السابقة واطاره الفكري، ويدخله في عملية وعلاقة وتفاعل مع تلك المتبنيات.

ويعتقد «غادامر» أن المفسر في عملية الفهم لا يسيطر سيطرة احتلالية على موضوع المعرفة (النص)؛ بل موضوع المعرفة هو الذي يبين نفسه له في مكان الفهم[٢٨].

ومن الواضح أن ما ذكره «غادامر» يتوافق تماماً مع وجهة نظر الشهيد الصدر عن التفسير الموضوعي.

فالشهيد الصدر وخلافاً لوجه نظر الكثير من المفسرين والباحثين التقليديين في علوم القرآن والذين يعتقدون أن على المفسر أن يفرغ عقله من أنواع الافتراضات والقناعات والخبرات السابقة لكي لا يبتلي بالتفسير بالرأي، هو يرى أنه لفهم الكلام بشكل أفضل لا بد للمفسر أن يستخدم الافتراضات التي اتيحت له من الخبرات البشرية ليستفيد منها، وليعرضها على النص القرآني لتصحيح ما يمكن تصحيحه منها.

فمعلومات المفسر السابقة تكون داعمة وموضحة للكتاب من جهة. ومن جهة أخرى هذه المعارف الإنسانية هي التي تخلق في عقل المفسر الأسئلة. وتقول

له ماذا يسأل القرآن؟. ومن أي منظار يرى المواضيع؟.

ومن المعلوم أن العقل الفارغ غير قادر على الاستفهام، بل أنه يرى أن إفراغ العقل من المعلومات والافتراضات ليس ممكنا وهو غير مرغوب فيه؛ لأن التفسير هو من مقولة الفهم. فالمفسر عندما يقوم بتفسير القرآن في الحقيقة، سيكون فهمه من النص موافقا لعلمه.

والنتيجة أن الشهيد الصدر مثل أصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفية يؤمن بتأثير شخصية المفسر في تفسير القرآن، بل وضرروة ذلك البعد في أصل عملية الفهم. فتأثير خلفيات المفسر وأحكامه ومعلوماته المسبقة هي بمثابة شرط وجودي لحصول عملية الفهم في التفسير الموضوعي، فهي التي تثير عملية الفهم، لأن عملية الفهم للنص في رأيه تبدأ من المفسر، فالنص لا ينطق بذاته، إلاّ إذا طرح المفسر عليه السؤال والموضوع.

وهذه الأسئلة ناشئة من أحكام ومعلومات المفسر المسبقة وتجاربه البشرية ولذا فهو يريد من النص أن يجيبه في حدود سؤاله، كما أنه يتوقع من النص المتعالي أن يحاوره في حدود هذا السؤال والخلفيات ولا يتجاوزها، وهكذا تدور عملية حوار جدلية بينهما، وربما خلال ذلك زالت بعض الأحكام المسبقة من وعي المفسر وحلت محلها أحكام مسبقة أخرى جديدة؛ لأن الأحكام المسبقة تتعرض للتصحيح بدورها خلال عملية الحوار دون أن يحاول المفسر تصحيحها قبل الفهم. وبذلك سوف يتأثر فهم النص بالأحكام والمعلومات المسبقة للمفسر دائما.

ثالثاً: اندماج الأفق[٢٩]:

إن الفهم أو التفسير عند غادامر وأصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفية إنما هو (امتزاج أفق المفسر مع أفق النص)، وهو نتيجة لحصول التوافق بينهما.

أصحاب الهرمنيوطيقا في كل قراءة من النص يتبين أفقان لديهم:

أفق القارئ وأفق النص، أي قراءة النص من قبل المفسر، والفهم الذي يتحقق منه. والفهم عندهم هو نتيجة اندماج هذين الأفقين.

طريقة الشهيد الصدر في التفسير الموضوعي مشابهة لمقولة الهرمنيوطيقا في هذا الصدد في جانب منها وهو أن مع اعتباره أن لخلفيات المفسر وتجاربه وافتراضاته السابقة أثر في حدوث الفهم بل وعده شرطاً ضرورياً ووجودياً لأصل عملية الفهم فهو يوافق بذلك ما ذهبت إليه الهرمنيوطيقا الفلسفية من اعتبار حقيقة الفهم إنما هي عملية امتزاج وتوافق بين أفق النص وأفق المفسر. وهذا يعني أننا لم نفهم النص وحده، بل كانت لخلفياتنا تأثيرها البارز في عملية الفهم وقراءة النص وأن فهم النص بلا شك سيتلون بتلك الخلفيات، وكل منهما سيكتسب من الآخر لأنه يرى عدم إمكان تجرد المفسر عن الأحكام المسبقة.

المبحث الثاني:

نقاط الافتراق بين التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر والهرمنيوطيقا الفلسفية

أولاً: في الموضوعية وتشخص المعنى:

الشهيد الصدر ومعظم الأصوليين من الفقهاء يؤمنون بأن المعنى في النصوص الوحيانية على وجه الخصوص في داخلها وهو تعبير عن عين الحقيقة في حيز موضوعها، وأن عملية الانطلاق من الواقع إلى النص إن وجدت إنما الغرض منها بيان مراد النص ذاته في قضية من القضايا.

وبعبارة أخرى: أن عملية التفسير الموضوعي هي عملية كشف وإبانة. كل ما في الأمر أن الشهيد الصدر جعل نقطة انطلاق المفسر الموضوعي من الواقع الخارجي مع تطبيق القرائن كافة التي يؤمن بها المفسر في استنطاق النصوص الشرعية. وغرضه الأساسي من كل ذلك هو بيان مراد مقاصد النص بشكل أدق وأعمق.

بينما في التفسير الهرمنيوطيقي الفلسفي المعنى غير موجود في داخل النص، بل هو خارجه. فالمعنى بزعمهم يشعر به الإنسان في قلبه وأن النص ما هو إلا تدوين لهذه الحقائق.

وبعبارة أخرى: أن الشهيد الصدر يرى أن الحقيقة القرآنية هي حقيقة موضوعية مستقلة ولا ربط لها بذاتيات المفسر وقبلياته ولهذا نجد أن الصدر جعل

النص متبوعاً وحاكماً، والعالم المفسر تابعا في علاج المسألة المطروحة بينما الحقيقة عند «غادامر» موجودة في داخل شخص المفسر ومنطلقة في ذلك أنه يعتبر معضلة الفهم معضلة وجودية[٣٠].

وموقف الهرمنيوطيقا من وجود المعنى في داخل النص أم خارجة هي قضية خلافية، حيث توجد اتجاهات متعددة ومختلفة هرمنيوطيقية. ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات العامة إلى اربعة أصناف:

١. **الاتجاه المحافظ**: ويمثله «شلاير ماخر» و «ديلتاي» و «هرش»، ويذهب إلى أن المفسر يتمكن من خلال المنهج الصحيح التوصل لمقاصد المؤلف والحقيقة الموضوعية للنص والعمل، ونعبر عن هذا الاتجاه بالتقليدي والرومانسي.

٢. **الاتجاه المعتدل**: ويمثله «غادامر» و «ريكور» و «اميليوبتي»، ويذهب إلى أن التفسير خلاق دائماً، وحوار جدلي دائماً بين المفسر والمؤلف (النص) ولذلك لا يمكن الحديث عن الحقيقة الموضوعية أو المعنى الذي قصده المؤلف، بل التفسير هو (امتزاج أفق المفسر مع أفق النص)، وتوافق بينهما.

٣. **والاتجاه المتطرف**، ويمثله «نيتشه» و «هيدجر» و «فوكوودريدا» حيث يرى أنه مع التأكيد على خلاقية المفسر فمن المشكوك به أن يتمكن المفسر من التوصل للمعنى الأصلي للعمل، فكل التفسيرات لمعنى النص احتمالية ونسبية.

٤. وأخيراً الاتجاه النقدي، ويمثله جون هابرماس وكارل اتو، ويذهب إلى أنه من خلال التأمل الناقد يتمكن المفسر أن يكون أكثر وعياً بالأعراف، حتى يكون أكثر صيانة من تأثير التراكمات الأيديولوجية والثقافية والاجتماعية للتقاليد، التي يعيشها المفسر، ولكن لا بمعنى التحرر الكامل منها.

فمثلاً رأي «هابرماس» أن التحرر من هذا الانحراف شرط على خلاف الواقع.

ثانياً: الاهتمام بالقواعد اللغوية وإمكانية وقابلية الفهم والتفسير.

يؤمن الشهيد الصدر رحمه الله بوجود

ظهور موضوعي واجتماعي للنص بخلاف أصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفية الذين أرجعوا المعنى بزعمهم إلى شعور الإنسان به في قلبه وأن النص ما هو إلا تدوين لهذه الحقائق.

وكما هو معلوم فإن الظهور اللفظي لأي نص لغوي يشتمل على نوعين. أحدهما الظهور الشخصي، والآخر الظهور الموضوعي.

الأول يتأثر بالظروف والعوامل الشخصية للذهن. ولذا هو ظهور معين وذاتي لكل إنسان يختلف من فرد إلى آخر تبعاً إلى إنسه وعلاقاته الذهنية الشخصية.

الثاني: الظهور الموضوعي فيراد به الظهور بموجب علاقات اللغة وأساليب التعبير العام. وهذا النوع من الظهور يتميز بكونه له واقع محدد يتمثل في كل ذهن يتحرك بموجب علاقات اللغة وأساليب التعبير العام.

وموضوع الحجية هو الظهور الموضوعي وليس الذاتي؛ لأن حجية الظاهر قائمة على أساس أن ظاهر حال كل متكلم إرادة المعنى الظاهر من اللفظ، ومن الواضح أن ظاهر الحال هذا إنما يراد به المعنى الظاهر موضوعياً لا ما هو الظاهر نتيجة لملابسات شخصية في ذهن هذا السامع أو ذاك[٣١]، ودليل حجيته هو سيرة العقلاء.

أمَّا الهرمنيوطيقا الفلسفية فتعد المسبقات الفكرية لها تأثير دائم في فهم النص وترفض وجود ظهور نوعي وإنما يوجد ظهور شخصي فقط.

فالألفاظ حسب الهرمنيوطيقا الفلسفية لا تشكل أهمية في فهم المعاني لذلك فقد أقصتها وفي أحسن الأحوال منحتها دوراً هامشياً لا قيمة له. في حين القراءة الأصولية تنظر إلى اللفظ بوصفه حاكياً عن المعنى فهنالك علاقة بين اللفظ والمعنى ناشئة عن عملية الوضع. وهذا أمر نلمسه في الخارج واقعاً وجلياً بين المتحاورين في واقع اللغة في عملية المحاورة.

ثالثاً: إن الفكر الإسلامي عموماً يؤمن بمحورية المؤلف في تفسير النص الديني لا بمحورية المفسِّر كما تدعي النظرية الهرمنيوطيقية.

ثالثاً: ضرورة التحـــرز من تأثير الافتراضات المسبقة من عدمه:

يعد الشهيد الصدر رحمه الله التحرز من الافتراضات السابقة من مباني التفسير الموضوعي الأساسية كما أن هنالك الكثير من القواعد والضوابط تم تأصيلها بهدف التحرز من الافتراضات المسبقة من قبيل مراعاة خصائص القرآن الكريم أو التدقيق التام قبل التقعيد أو التأصيل أو تجنب الحشو والاستطراد في التعليق أو العناية بالتفسير التحليلي وغيرها بينما في نظرية الهرمنيوطيقا الفلسفيـــة وعند «غادامر» خصوصاً فإنهم يستنطقون النص بواسطة فرض قناعاتهم التي هي نتاج لقبليات ومسبقات المفسر.

والسبب في ذلك يعود لكـــون الهرمنيوطيقا الفلسفية تعد السؤال يمثل تفسيراً جزئياً للظاهرة موضع السؤال؛ بل إن هذه السمة من الأطروحات الأساسية للهرمنيوطيقا (كما لخصها ديلتاي).

بينما في التفسير الموضوعي برأي السيد الصدر رحمه الله السؤال يهدي إلى الفهم ومن دون السؤال لا يتم الفهم الصحيح والشامل للنص المتعالي.

فالسؤال لا تأثير له في محتوى النص وإن كان جاء من معلومات المفسر، ومن خارج النص إلا أنه لا يفرض معنى على النص، والجواب يحصل من النص لا من السؤال.

وهو يـــرى أن هدف هذا الحـوار والسؤال والجواب، هو جعـــل العمل يتكلم (الاستنطاق)، أي بمعنى أن جهود المفسر هي ليس بفرض معلوماته السابقة على الموضوع، بل باعتبـــار معلومات المفسر السابقة هي نقطة البداية العملية التي سيكون منتجها النهائي جعل النص المتعالي على الزمان والمكان يتكلم وينطق.

رابعاً: الاختلاف في منشـــأ تعدد القراءات للنص وصحتها.

فبينمـــا تؤمن نظرية الهرمنيوطيقـــا الفلسفية بتعدد القراءات وتجعل جميع تلك التفسيرات صحيحة فـــلا يوجد معيار لتقويم الصحيح والخاطئ منها، بل لا مبرر لنقد هذه التفسيرات المختلفة ونقدها.

نجد أن الشهيد الصدر ونتيجة إيمانه

بمحورية القرآن الكريم والتسليم له بالصدق يرفض هذا المستوى من تعدد القراءات.

وأما ما نجده من تعدد قراءات للنص الديني بالوجدان فيرجع لأسباب قد تتعلق بشخص المفسر وقبلياته، أو الطريقة التي اتبعها في التفسير، أو نتيجة أدوات الإثبات التي اعتمدها في التفسير، ولذا قد تتعارض الآراء التفسيرية فيما بينها، وهذا لا يعني أنها تكون بأجمعها صحيحة خصوصاً على مبنى من يقول بالتخطئة ويرفض التفسير بالرأي كما هو رأي الشهيد الصدر.

وبعبارة أكثر تفصيلاً:

ما هو المعيار والهدف من معرفة المتن وتفسيره، هل هو استكشاف مراد الماتن؟. أو معرفة حاقّ المتن نفسه وتعيين معناه الذاتي -مع قطع النظر عن مراد الماتن- فكأنّ الماتن حينئذ أحد قرّاء المتن؟.

فعلى الأوّل: لابد في تفسير المتن من لحاظ خصوصيات المتكلّم الماتن وحالاته الشخصية والشرائط الزمانية والثقافية الحاكمة عليه.

وعلى الثاني: لابد في تفسيره من الاقتصار على القواعد اللفظية الوضعية أساليب الحوار العامّة، مع قطع النظر عن خصوصيات وحالات شخص الماتن وشرائطه الثقافية.

والجواب على ذلك: لا ريب في أصالة وموضوعية قصد الشارع في المتون الشرعية. فاعتماد منهج الشارع المقدس في خطاباته وتشريعاته على أساس المحاورات العقلائية لا مناص منه في تحكيم أساليب الحوار العرفي بينهم في استكشاف مراد الشارع من خطاباته.

وقد استقرّت سيرة عقلاء العالم من أيّ عصر وجيل في محاوراتهم وتشريعاتهم، على الاتكال على القرائن الحالية والمقامية الحافّة بكلامهم وعلى الخصوصيات الزمانية والمكانية والقومية والشرائط الثقافية المحكمة بين أهل زمانهم، مضافا إلى القرائن اللفظية الوضعية وقواعد الحوار العقلائية العامّة.

خامساً: الاختلاف في وجود تفسير نهائي وثابت من عدمه:

الهرمنيوطيقا الفلسفية تؤمن في ضوء

نظريتها في حقيقة الفهم لإضافة إلى أن لكل نص تفسيرات متعددة بلا نهائية تلك التفسيرات حسب تعدد المفسرين وخلفياتهم وعدم حصر الحقيقة النهائية عند مفسر معين.

ولذا أنكرت الهرمنيوطيقا الفلسفية وجود معنى معين ونهائي ومطلق للنص، وإنما للنص تفسيرات متعددة غير متناهية بعدد المفسرين وخلفياتهم وظروفهم المتعددة المختلفة.

ويرجع تعدد المفسرين وتعدد خلفياتهم وتغيرها، لعلة أن لكل مفسر ظروفه الخاصة المختلفة عن غيره. ولذا لا يمكن أن يتساوى فهمه مع فهم غيره، وكل من القراء يفسره حسب خلفياته، بل حتى المفسر الواحد ربما اختلفت تفسيراته باختلاف ظروفه.

بينما الشهيد الصدر وانطلاقا من اعتقاده بإمكانية فهم القرآن، وبمحورية كلا من المؤلف والنص يرفض القول بلا نهائية القراءات بخلاف من يقول بمحورية قارئ النص.

سادساً: الاختلاف في وجود معيار لتقييم التفسيرات الصحيحة من عدمه:

فعلى ضوء النظرية الهرمنيوطيقة الفلسفية لا يمكن الحكم على أن هذا التفسير صحيح وذاك باطل أو صحيح أو لا أقل ترجيح تفسير على آخر، إذ لا يوجد تفسير ثابت ونهائي يمثل قصد المؤلف حتى يكون هو المعيار الصحيح، وكل معيار يطرح يكون بدوره بزعمهم متأثراً بخلفيات المفسر، فيكون نسبياً أيضاً، وكل ما يمكن قوله هو (وجود) تفسيرات متعددة للنص الواحد بعدد المفسرين، فلا يوجد تفسير موضوعي حقيقي معين كقصد المؤلف يكون معياراً.

ولعل أهم نتيجة تترتب على هذه النظرية في تفسير النص هي (نسبية المعرفة)، والقول بالتعددية الدينية. فليس هناك تفسير ثابت ونهائي، بل كل التفسيرات متغيرة ومتعددة؛ لأن كل فهم متأثر بالأحكام المسبقة للمفسرين وهم بدورهم متأثرون من ظروفهم التاريخية وهي متغيرة دائماً فتكون جميع التفسيرات نسبية متغيرة. لذلك كانت هذه النظرية من مذاهب (النسبية).

وكل هذه التفسيرات مشروعة وعلى حق، لأنه على تفسير «غادامر» للحقيقة إن كل فهم هو يمثل الحقيقة، وليست هناك حقيقة خارجية وراء الفهم يقاس به الفهم، بل الفهم هو الحقيقة ولا فرق في رأيه بين الفهم الصائب وغيره. أما رأي الشهيد فهو على خلاف ذلك تماماً.

إذ أنه يرى أن الدين لا يقول بنسبية المعرفة دائماً كما في النظر الهرمنيوطيقي، لأن ذلك يترتب عليه أنه لا مسوغ لتخطئة بعض التفسيرات والآراء طالما أن كل مفسر يفهم بحسب خلفياته وقاصده. ومن هنا فإن جميع القراءات والتفسيرات صحيحة. وهذا محال أيضاً، لأنه يقوض النص الديني من أساسه، ويذهب بالحقائق الدينية، كما أنه يشرع لفوضى المعنى، واضطراب الفهم، فيشيع - لا محالة -الشك المطلق واللاأدرية[٣٢]، وبالتالي، يتزعزع الإيمان الأيمان وتتخلخل معه المعرفة الدينية المتوقفة على أساس المعتقدات ومبادئ دينية محددة راسخة ثابتة.

سابعاً: الاختلاف في الهدف والمقصد عند كل من أصحاب الهرمنيوطيقا الفلسفية والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر.

فبينما يسعي الشهيد الصدر لتحديد موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة والكون[٣٣]. فإن الهرمنيوطيقا الفلسفية هدفها هو تعليل حصول الفهم، وتفترض أن أي نص إذا أريد فهمه فلابد بداية من عملية تفسيرية له، فهي أشبه بنظرية في المعرفة منها أن تكون تفسير لنص له مؤلف.

المبحث الثالث:

المنيوطيقا الفلسفية والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر مناقشة وتقييم.

من خلال المقارنة السابقة بين التفسير الموضوعي والهرمنيوطيقا الفلسفية يمكن ذكر جملة من الإشكالات والسلبيات أو التحديات على اعتماد كل من الهرمنيوطيقا الفلسفية الحديثة وأسلوب التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر كمنهج وأسلوب في تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

مناقشة وتقييم أسلوب التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر رحمه الله :

أمَّا بخصوص أسلوب التفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر رحمه الله فقد أوردت جملة من الاشكالات هي بمثابة تحديات أكثر من كونها سلبيات أو إشكالات مستحكمة تواجه المفسِّر والتفسير الموضوعي والناشئة من ممارسة عملية التفسير الموضوعي عادة من قبيل[٣٤]:

أولاً: الحاجة الكبيرة للتخصص في مجال التفسير والاطلاع الكافي والواسع في مجال التفسير الترتيبي لتجنب محذور التفسير بالرأي، فالتفسير الموضوعي أشد عمقًا من التفسير الترتيبي؛ لأن التفسير الموضوعي يحتاج إلى إحاطة شاملة من قبل المفسر بجميع آيات القرآن الكريم وسوره وبتحديد وتشخيص الموضوع الخارجي.

ولذا المفسر الموضوعي يحتاج الى فكر ثاقب لمعرفة مواضيع حياتية واقعية ثم عرضها على القرآن الكريم لاستخلاص نظرية قرآنية مما يحتاج الى فكر متميز قادر على استخدام مراحل عليا من التفكير العقلي كالتحليل والتركيب.

ثانياً: اتساع الموضوعات وتشعبها:

ولذا لا بد من توخي الصبر وطول النفس العلمي في معالجتها واعتماد الدقة في جمع الآيات المناسبة لها وعدم الاكتفاء بالمعجم المفهرس للقرآن حتى لا نغفل أو نخطأ عن الكثير من المفاهيم القرآنية التي وردت في القرآن بألفاظ أخرى.

فلا يمكن القيام بالتفسير الموضوعي بمجرد ضم الآيات المتشابهة فالتفسير الموضوعي وخصوصا برأي الشهيد الصدر رحمه الله ليس مجرد عملية عزل وتجميع للآيات. كالأشباه والنظائر والناسخ والمنسوخ وحتى آيات الأحكام وهكذا.

ثالثاً: عدم الدقة في جمع الآيات، والاعتماد على الألفاظ الموجودة في المعجم المفهرس للقرآن، والغفلة عن المفاهيم القرآنية الواردة بألفاظ أخرى في القرآن[٣٥].

رابعاً: عدم مراعاة السياق وبذلك

يفقد القرآن اعجازه البلاغي والجمالي لأن هذا الأسلوب التفسيري يخل بنظم الآيات القرآنية.

ويمكن معالجة هذا التحدي أو لا أقل تقليله من خلال تفسير الآيات ضمن سياقها قبل عملية عزلها وجمعها وتبويبها.

خامساً: أنها تمثل قراءة الأُحاديّة الأبعاد:

وهذا التحدي يحصل نتيجة أن المفسر يأتي وذهنه ناظر إلى معنى محدد لتحديد الموقف النظري لهذه الآية أو تلك من ذلك المعنى، ولذا فهو يذهل عما تتضمنه الآيات القرآنية من معاني كثيرة وعميقة.

ويجاب على ذلك: أن فهم تمام النكات والإحاطة بها هو وظيفة التفسير الترتيبي وليس الموضوعي. بل إن الرؤية الأحادية قد تكون في التفسير الترتيبي أكثر حضوراً، وذلك أن القرآن يتصف بنسق معجز فالقرآن يفسر بعضه بعضاً فلا تناقض ولا تضاد بين معاني الآيات الكريمة لا على مستوى نسق القلم وأسلوب التعبير ولا على مستوى المضمون والمعاني، قال تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).

هذه السمة والتي هي أحد أوجه الإعجاز القرآني تمنع أو لا أقل تقلل من تلك النظرة الأحادية والتي تجعل المفسر يذهل عما تتضمنه الآيات القرآنية من معاني متعددة ومختلفة.

وقد طرحت جملة من الشبهات حول شرعية هذا الأسلوب في تفسير القرآن الكريم، من أهمها:

الشبهـــة الأولى: إنه تحميل للتجربة البشرية على القرآن، من خلال انتخاب المفسر نظره ورأيه من خارج القرآن (قبل الورود في مجال التفسير)، فيكون أحد مصاديق التفسير بالرأي المذموم. فالمفسر يأخذ رأيه ونظره من خارج القرآن قبل الورود في تفسير القرآن ويحمله القرآن.

ويرد على ذلك:

أولاً: إن التفسير الموضوعي عندما يجمع بين التجربة البشرية والنص القرآني لا يهدف من ذلك إلى تحميل التجربة البشرية على القرآن؛ بل يهدف إلى التوحيد بينهما في سياق بحث واحد باستخراج نتيجة هذا السياق.

فالواقـــع الخارجي يطرح الأسئلة والنص يجيب في عملية تفاعل وحوار واستعلام.

والتفسير الموضوعي الصحيـــح في حقيقته إنما هو استنطـــاق وحوار مع القرآن وليس تنطيق للقرآن. فالمفســـر يسأل والقرآن يجيب باعتبار أن القرآن تبياناً لكل شيء ولذلك لا يمكن اعتبار ظاهرة التفسير الموضوعي بأخذ موضوع من خارج القرآن والتي تبلورت أسسه ومنهجه وتكاملت في العصور المتأخرة من مصاديق التفسير بالرأي المنهي عن في الروايات الشريفة.

ثانياً: المفســـر الموضوعي من خلال اختياره لموضوع خارجي من واقع الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية إنما يطرح موضوعاً مشوباً بالتجربة والمعرفة البشرية فيما توصلت إليه التجربة والمعرفة البشرية من حلول وما أثاره التطبيـــق البشري من مشاكل ونقاط فراغ، وهو بذلك يوفر مادة خام للسؤال من دون أن يحمل قبلياته الفكرية والدينية على القرآن، بل هي عملية توظيف هادف للنص القرآني لعلاج مشاكل الحياة المختلفة.

وهذه العملية هي في الحقيقة تأكيد على خاتمية الرسالـــة وخلودها وقدرتها على معالجة الأسئلة المعاصرة من خلال استشفـــــاف موقف السماء من تجربة الأرض.

ثالثاً: أنه حتى مع الالتزام بأن تسمية التفسير الموضوعي جاءت من أن التفسير الموضوعي هو ليس مجرد عملية عزل وتجميع للآيات التي تشترك بموضـــوع واحد أو يتشكـــل منها مركب نظري واحد، بل هو اختيار موضوع من خارج القرآن كما يرى الشهيد الصدر رحمه الله : (أن يبدأ المفسر من الموضوع المعين وينتهي إلى القرآن الكريم وهو ما يعبر عنه بالبعد الأول، أما الأمر الآخر: أن يختار المفسر مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد، ويقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها من أجل أن يستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع)(١).

فـــإن التفسيـــــر الموضوعي يبقى في حقيقتـه وروحه هو يعتمد بالدرجة الأساس على منهج تفسير القرآن بالقرآن

والذي هو من المناهج التفسيرية المتفق عليها عند علماء المسلمين على مر العصور، فالهدف من طرح ذلك الموضوع الخارجي هو الوصول إلى مركب نظري قرآني من خلال الربط بين المدلولات التفصيلية والمعارف القرآنية للآيات التي تم عزلها وتجميعها وتبويبها منطقياً للخروج بنظرية وموقف للقرآن تجاه ذلك الموضوع الخارجي حيث ينطلق التفسير الموضوعي من التسليم بأن القرآن كلام حكيم يفسر بعضه بعضاً وأنه تبيانا لكل شيء فكيف لا يكون تبياناً لنفسه فيما يخص تفسير الآيات بعضها لبعض.

فهي عملية تثوير للنص المتعالي واستفهام منه وتوظيف هادف له في معالجة الواقع. وليس عملية تحميل للواقع والتجربة البشرية على القرآن.

الشبهة الثانية: إن التفسير الموضوعي يندرج ضمن مصاديق التفسير بالرأي المنهي عنه في المأثور من الروايات.

وللرد على هذه الشبهة لابد من بيان المقصود من التفسير بالرأي وهل كل التفسير بالرأي هو منهي عنه.

أولاً: ما معنى التَّفسير الرأي؟.

المراد به هو التَّفسير بالاستحسان والترجيح الظني، أو الميل النفسي لإتباع الهوى[٣٦].

وهذا التَّفسير منهي عنه، نتيجة الرِّوايات التي تظافرت على ذلك، ويمكن أن نذكر منها: حديث النبيﷺ أنه قال: من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق، فقد أخطأ[٣٧]. وهناك رواية أخرى تنقلها عائشة عن النَّبي أيضاً قالت: لم يكن النَّبيﷺ يفسر القرآن إلا بعد أن أتى به جبرئيل[٣٨].

بينما التفسير الموضوعي الطريقة الصحيحة له أن يقوم المفسر بجمع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، ومناقشتها ودراستها، ثم إعلان الرأي النهائي الذي يرتضيه[٣٩].

ثانياً: مع التنزل والقول بأن ظاهرة التفسير الموضوعي داخلة ضمن التفسير بالرأي فأنه ليس كل تفسير بالرأي هو تفسير مذموم ومنهي عنه بل التفسير بالرأي المذموم هو ما يكون المقصود من الباء في كلمة بالرأي بمعنى الباء

السببية، والتفسير يكون بسبب الرأي. أما التفسير بالرأي بمعنى الاجتهاد وبذل الجهد للوصول إلى فهم مراد الله تعالى من خلال اعتماد الوسائل والأساليب التي ثبتت حجيتها ودليليتها في مرحلة سابقة فالتفسير الموضوعي عندئذ يساوق التفسير الاجتهادي عند الشيعة أو التفسير بالرأي الممدوح عند السنة.

الشبهة الثالثة: إنه لو كان شرعي وجائز أو لا أقل تحتاجه الأمة لوجدنا نماذج متعددة منه عند النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

ويرد على ذلك بجوابين:

جواب حلي ذكره الشهيد الصدر وهو أن التفسير الموضوعي لم تكن الحاجة إليه في عصر النبي ﷺ والصحابة ظاهرة وواضحة نتيجة عدة أسباب.

أما في عصر النبي ﷺ فلوجود الإطار التربوي والروحي والفكري والعقائدي الذي كان يعيشه المسلمين الصحابة وما كان يمثله وجود النبي ﷺ من أهمية في توفيره ذلك العلم الإجمالي والذي هو بمثابة العلم الإجمالي أو الارتكازي الذي يجعل المسلمين في غنى عن تحديد نظرية الإسلام فكان يكفي ذلك الإطار[٤٠].

وأمّا في عصر الصحابة فأولاً هنالك عوامل عديدة أدت لشيوع وطغيان النزعة التجزيئية في التفسير على حساب النزعة الموضوعية من قبيل أن التَّفسير في بديته كان يروى كما تروى الأحاديث النَّبوية الشَّريفة، حيث لم ينفصل عن الأحاديث في ذلك العهد[٤١]. بل كان التفسير شعبة من شعب للحديث استخدم المسلمون في بداية دعوتهم هذا النوع من التَّفسير، مقتصرين على بعض الآيات التي يصعب فهمها، وخاصّة آيات الأحكام، نظراً لحاجتهم إليها في المجال التطبيقي لأحكام الشَّريعة السمحاء.

فعدم استشعار المسلمين وعلمائهم في العصور السابقة لأهمية البحث الموضوعي باعتبار عدم الحاجة الكبيرة إليه كما هو الحال اليوم حيث برزت النظريات والرؤى المختلفة في مجالات الحياة وبالتالي الحاجة أكثر الى تقديم الإسلام كنظرية مذهبية جاء بها النبي ﷺ عن طريق الوحي لمواجهة النظريات المذهبية الأخرى

ليتضح مدى صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة.

كما أن فهم الإسلام كنظرية هو الذي ييسر لنا سبيل أن نتبناه نظاماً للحياة وندافع عنه لتطبيقه وصيانته فالحاجة حاجة نظرية لعرض الإسلام(٤٢).

جواب نقضي: وهو أن هذه الدعوى غير صحيحة، وممن ذهب لذلك السَّيد الشَّهيد الصدر أيضاً حيث يذكر في كتابه المدرسة القرآنية، أن هنالك اتجاهين رئيسين لحركة التَّفسير أحدهما، أطلق عليه الاتجاه التَّجزيئي: وهو الَّذي يتناول فيه المفسر القرآن الكريم آية فآية، وفق تسلسل تدوين الآيات في المصحف الشَّريف(١) والآخر الاتجاه الموضوعي في التفسير ولا يمكن الفصل بينهما لا على مستوى الواقع العملي ولا على مستوى التجربة التاريخية.

كما أن هناك نماذج تطبيقية صادرة عن النبيﷺ والأئمةعليهم السلام للتفسير الموضوعي، خصوصا في القضايا العقائدية والقضايا الفقهية الخلافية من قبيل مسألة رؤية الله أو الإمامة أو حد القطع للسارق أو قضية وغيرها.

نعم على مستوى المصطلح ووضع الأسس المنهجية فإن الحاجة المعاصرة لإبراز نظريات الإسلام والتحدي الذي تواجهه الأمة الإسلامية هذه الحاجة النظرية هي أدت إلى تطور ونمو هذا الاتجاه التفسيري وإن كانت بذوره موجودة روايات النبيﷺ والأئمةعليهم السلام.

بينما في عصر النبيﷺ هنالك فهم إجمالي للنظرية القرآنية لمن عاشوا في الإطار الروحي والتربوي والاجتماعي والعقائدي المتجسد بأفعال النبي وأقواله.

وختاما فإن التفسير الموضوعي حتى وفق أسلوب الشهيد الصدر لا يعد دعوة لمنهج جديد بل هو في حقيقته هو دعوة للتكامل واستنطاق وحوار مع القرآن كما أن روح هذا الأسلوب في التفسير عند التأمل هو منهج القرآن بالقرآن الذي اجمع كل المسلمين على جوازه وأفضليته كل ما في الأمر مرة يكون الموضوع المختار خارجي بحسب رأي الشهيد الصدر

ومرة يكون من داخل القرآن وهو الشائع والمشهور.

الشبهة الرابعة: إن التفسير الموضوعي لا يراعي السياق القرآني أو يغفل عنه نتيجة التقطيع للآيات وفصلها تماما عن القرآن.

والتقطيع له جانبين سلبيين هما:

أولا: أن تلك الآيات المعزولة عن سياقها ستفقد إعجازها البلاغي والجمالي المتمثل بالنسق القرآني ونظم الآيات.

ثانياً: أن فصل الآيات عن القرائن الموجودة ضمن السياق سواء أكانت تلك القرائن حالية أو لفظية وإغفالها معناه الإخلال في فهم مراد الله تعالى لتأثير السياق القرآني في الفهم.

كيفية علاج هذا التحدي:

بأن يقوم المفسر بتفسير الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد ضمن سياقها قبل عزلها وتجميعها وتبويبها بشكل منطقي لتحديد الموقف النظري من الواقعة أو الفكرة قبل الخروج بمركب نظري من خلال الربط بين مدلولات الآيات التفصيلية لتحديد الموقف النظري للقرآن بل الإسلام من ذلك الموضوع الفكري أو العقائدي أو الاجتماعي أو الكوني.

كما أنه لابد أن يتقارن التفسير الموضوعي والتفسير الترتيبي حتى يمكن تجاوز هذا الخلل في التفسير[٤٣].

فالآيات المتعلقة بالموضوع الخارجي مثلاً لابد من ملاحظة القرائن العقلية والنقلية والسياق فيها قبل عزلها وتجميعها وتفسيرها تفسيرا تجزيئيا للربط بين مدلولاتها التفصيلية للخروج بمركب نظري يمثل موقف القرآن من ذلك الموضوع الخارجي.

الخاتمة:

وأهم ما توصلنا إليه من خلال الفصول السابقة يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

أولاً: إن طريقة الشهيد الصدر رحمه الله في تعامله مع النص الشرعي تختلف كثيرا مع نظرية تحليل النصوص (الهرمنيوطيقا) وبالأخص تلك التي يطرحها «غادامر» ومن تأثر بأفكاره (الهرمنيوطيقا الفلسفية)؛ ولكن ذلك لا يعني عدم وجود مساحات للتلاقي بينهما سببها أما توارد الأفكار أو

تأثر الشهيد الصدر بالأفكار المعاصرة واطلاعه الجيد عليها.

ولذا فإن النسبة المنطقية التي تربط بين مباني تفسير القرآن الموضوعية والهرمنيوطيقا الفلسفية هي العموم والخصوص من وجه، أي أنه إلى جانب التزام كل واحد بمبان مشتركة، هنالك مبان خاصة نابعة من توقعات المفسر وفروضاته المسبقة.

ثانيا: إن القرائن التاريخية لا تساعد على دعوى إطلاع الشهيد الصدر على أفكار «غادامر» حيث أن كتابه الحقيقة والمنهج لم يُترجم في عصر الشهيد الصدر رحمه الله إلى اللغة العربية، حيث نشر لأول مرة عام ١٩٦٠م باللغة الإنكليزية، ولكن هذا لا ينفي احتمالية أن الشهيد الصدر قد أطلع على بعض من سبقه من علماء الهرمنيوطيقا. خصوصا مع وجود بعض التشابه بين طريقة طرح الأسئلة لاستنطاق النص عند الشهيد الصدر والمتجسدة في مقولة التفسير الموضوعي من خلال اختيار موضوع خارجي وقد تكرر هذا كثيرا في تراث الشهيد الصدر[٤٤] مع طريقة «غادامر» في فهمه وتفسيره للنص.

ثالثاً: النظر إلى القرآن الكريم بوصفه كلام الله تعالى، كأصل موضوعي في مجال قراءة النص، أمر لا محيص عنه. وهذا لا يمنع غالباً من تطبيق الآليات العقلائية المتعارفة في فهم النصوص، لأن الله تعالى صاغ خطابه القرآني بالأسلوب المتعارف بين العقلاء. وهذا هو المائز الرئيسي بين مقاربتنا للقرآن الكريم ومقاربة الغربيين لأي كتاب مقدس.

رابعاً: إيمان بعض المدارس الغربية بموت المؤلف، وإقصاء قصد المؤلف، لصالح الناقد أو القارئ أو المفسر أمر لا يمكن القبول به، لأن هدف مفسر القرآن الأساسي مهما كان أسلوبه ومنهجه واتجاهه في التفسير يبقى دائماً هو السعي لاستكشاف مراد الله سبحانه من النص.

خامساً: إن أمكن القبول بتعدد قراءة النص الواحد وفق ضوابط معينة حسب قدرته على الإيحاء عن طريق الرمز، فإن ما

لا يمكن القبول به هو لا نهائية القراءات، الأمر الذي يؤدي لا محالة إلى فوضى التفسير.

سادساً: بناءً على ماتقدّم، يمكن القول: إنّ الشهيد الصدر في التفسير الموضوعيّ، وبالاعتماد على الركن الخارجيّ؛ اعتنى باستخدام الخبرات العلميّة والمعارف البشريّة في عصر المفسر في تفسير القرآن، وهو بذلك يشير إلى مقولة هامّة تحتوي على المواضيع الهرمنيوطيقيّة الهامّة وهي أهمية دور الافتراضات ومعلومات القارئ في عملية التفسير وفهم مراد النص.

وبالتأمّل في هذه المقولة (الركن الخارجيّ) تظهر التشابهات الموجودة بين أفكاره والطرح الهرمنيوطيقيّ. فكما أنّ في الهرمنيوطيقا تؤكد على مقولة الافتراضات، ومعلومات القارئ، وتأثيرها على عملية الفهم، وتُعرَض مقولات، مثل: الدور الهرمنيوطيقيّ، واندماج الأفقين الأفق الفكري للمفسر وأفق المعنى للنص؛ بوصفها أدوات لهذا الطرح الهرمنيوطيقي؛ ففي فكر الشهيد الصدر أيضاً -تمّ التأكيد على استخدام المواريث العلميّة، والخبرات البشريّة من قِبَل المفسر؛ بوصفها شرطاً أساسياً في التفسير الموضوعيّ، ومن وجهة نظره تمّ عرض مقولات أخرى، من قبيل الاستنطاق ومحاورة النص يمكن أن نستنتج منها بعض المقولات الهرمنيوطيقيّة كالدور الهرمنيوطيقيّ و اندماج الآفاق.

سابعاً: من مجمل النقود التي ذكرت لمنهج الهرمنيوطيقا الفلسفية في تفسير النص الديني والنص بصورة عامة يتضح الفرق الشاسع بين متانة وواقعية وانسجام القراءة الأصولية والتي مثل الشهيد الصدر رحمه الله ذروة تكاملها وتطورها وبين فرضيات وأركان القراءة الهرمنيوطيقية والتي مثلت الهرمنيوطيقا الفلسفية غايتها ومنتهاها.

وختاماً: يبقى هنالك سؤال مهم ويحتاج إلى مزيد بحث وهو كيف نمهد لتأسيس منهج يراعي نسبية المعارف الدينية في بعض جوانبها من جهة ويقر بالمصدر الإلهي للنص الديني القطعي وتعاليه؟.

الهوامش:

(١) يُنظر: الافريقي، ابن منظور، لسان العرب، الناشر: أدب الحوزة، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١، ١٤٠٥هـ، ص٥٥.

(٢) لسان العرب، (م. س)، ص١٨٨.

(٣) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٢، ١٤٠٨هـ، ج٣، ص٣٣٣.

(٤) الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن:، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، ج١، ص١٣.

(٥) الخوئي، السيد أبو القاسم: البيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية، قم المقدسة، ص٤٢١.

(٦) العلامة الطبطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مطبوعاتي إسماعيليان، قم المقدسة، ص ٧ -٨. ، ج١، ص٤.

(٧) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص٣٥.

(٨) ينظر: الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، ص٣٤٦.

(٩) موقع صيد الفوائد: http:// www. saaid. net/ contact. php

(١٠) الأزرقي، الدكتور أحمد، منطق فهم القرآن، (م. س)، ص٨٤.

(١١) يُنظر: السبحاني، الشيخ جعفر، كتاب «هرمنوتيك». ص١١٢.

(١٢) قضايا إسلامية معاصرة: الهرمنيوطيقا والتفسير، حسن حنفي، العدد السادس، ١٩٩٥، ص٥٧.

(١٣) الأزرقي، الدكتور أحمد، منطق فهم القرآن، ص٨٤ -٨٥.

(١٤) غادامر، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه على الألمانية: جورج كتوره، دار أويا للطباعة والنشر، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ط١، ٢٠٠٧م.

(١٥) يُنظر: الأزرقي: الدكتور أحمد: منطق فهم القرآن، (م. س)، ص٨٥.

(١٦) مسلم، د. مصطفى: مباحث التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٧م، ص١٧.

(١٧) مسلم، د. مصطفى: مباحث التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٧م، ص١٧.

(١٨) ينظر أبو زيد، أحمد عبد الله: أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمَّد باقر الصدر قراءة فاحصة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠١١م، ص.

(١٩) ينظر بيضون، لبيب: التفسير التجزيئي والتفسير التوحيدي (الموضوعي) للقرآن الكريم، (غير منشور)، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، الرقم ١٨٦.

(٢٠) ينظر العمري، حسن، إسلامية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١١٦ -١١٧.

(٢١) محمد بهرامي، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢٢) هنالك خلط كبير بين الأصول والقواعد، والمختار في التفريق العام بينها أن الأصل غالباً ما يبحث من خارج العلم بينما القاعدة

فتبحث داخله.

(٢٣) يُنظر: ميبدي، د. محمَّد فاكر: قواعد تفسير القرآن عند الشيعة والسنة، ص.

(٢٤) وهو الركن الخارجي، أي معلومات المفسر السابقة، والمعتقدات التي وفرتها له الخبرة الإنسانية.

(٢٥) الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مرعشي، ط ٢، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٥ هـ. ق، ج ٢، ص٤٨؛ الراغب الأصفهاني، حسين: جامع التفاسير، تحقيق: أحمد حسين فرحان، الكويت، دار الدعوة، ١٤٠٥ هـ. ق، ص٧٦.

(٢٦) بابايي، علي اكبر وديكران: روششناسي تفسير قرآن، طهران، منشورات سمت، ١٣٧٩ هـ. ش، ص. ٣١٨

(٢٧) يُنظر: الصدر، محمَّد باقر: المدرسة القرآنية، ط١، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، إيران، ١٤٢٤ هـ، ص ٢٧.

(٢٨) مسعودي، جهانكير: هرمنيوتيك ونواندیشیدیني، ط ١، قم المقدّسة، معهد الفكر والثقافة الإسلاميّة، ١٣٨٦هـ. ش، ص: ٧٨.

(٢٩) الأفق المقصود منه هنا هو وجه النظر والموقف الذي يتم من خلاله النظر إلى الأشياء.

(٣٠) يُنظر: أبو زيد، نصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص٧٣.

(٣١) الاصول: ج٢، ص١٦٥-١٦٦.

(٣٢) اللاأدرية.

(٣٣) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، (م. س)، ص٣١ -٣٢.

(٣٤) الرضائي الاصفهاني، محمد علي: مناهج التفسير واتجاهاته، تعريب: قاسم البيضاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر، ص٤٢٥.

(٣٥) الرضائي الأصفهاني، د. محمد علي: مناهج التفسير واتجاهاته (دراسة مقارنة في مناهج التفسير القرآن الكريم)، تعريب: قاسم البيضاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٤٢٥.

(٣٦) الصغير، محمَّد حسين: دراسات قرآنية: ص٩٠.

(٣٧) الطوسي، محمَّد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٤.

(٣٨) الطوسي، محمَّد بن الحسن، (م. س)، ج١، ص٤.

(٣٩) الرضائي الأصفهاني، د. محمد علي: مناهج التفسير واتجاهاته (دراسة مقارنة في مناهج التفسير القرآن الكريم)، تعريب: قاسم البيضاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٤٢٤ -٤٢٥.

(٤٠) يُنظر: الشهيد الصدر، المدرسة القرآنية، (م. س).

(٤١) الذهبي، محمَّد حسين: التَّفسير والمفسرون، ج١، ص٩٧.

(٤٢) ص٣٤٧.

(٤٣) مناهج التفسير واتجاهاته (دراسة مقارنة في مناهج التفسير القرآن الكريم): د.

محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب: قاسم البيضاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت،، ٢٠٠٨م، ص٤٢٤.

(٤٤) الصدر، محمد باقر: فلسفتنا، ص٧٦، ٧٩، ١٤٢، ١٨٩؛ اقتصادنا، ص١٢٩؛ الأسس المنطقية للاستقراء، ص١٢٤.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

١. الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ط١، إيران، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، إيران، ١٤٢٤هـ.

٢. غادامر، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه على الألمانية: جورج كتوره، دار أويا للطباعة والنشر، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ط١، ٢٠٠٧م.

٣. العكيلي، الشيخ سعيد: مقولات الحداثة قراءة في الجذور، ومناقشة في النتائج، ط١، جمعية العرفان للثقافة الإسلامية، مطبعة الكوثر، ٢٠١٤م.

٤. الأزرقي، الشيخ أحمد: منطق فهم القرآن، مركز الهدف للدراسات الإسلامية، ط٢، قم، منشورات المحبين، ٢٠١١م.

٥. بيطار، د. زهير: حوارات حول فهم النص وقضايا الفكر الإسلامي: بيطار، دار الهادي، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.

٦. الشيرازي، مرتضى الحسيني: نقد الهرمنيوطيقا ونسبية الحقيقة والمعرفة واللغة، مؤسسة التقى الثقافية، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.

٧. مناهج التفسير واتجاهاته (دراسة مقارنة في مناهج التفسير القرآن الكريم): د. محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب: قاسم البيضاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت،، ٢٠٠٨م، ص٤٢٥.

٨. ميبدي، د. محمَّد فاكر: قواعد تفسير القرآن عند الشيعة والسنة.

٩. أبو زيد، د. نصر حامد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل.

١٠. شبستري، د. محمد مجتهد شبستري: الهرمنيوطيقا والكتاب والسنة.

١١. مسعودي، جهانكير: هرمنيوتيك ونواند يشيديني، ط ١، قم المقدّسة،

معهد الفكر والثقافة الإسلاميّة، ١٣٨٦هـ. ش.
١٢. بابايي، علي اكبر وديكران روششناسي تفسير قرآن، طهران، منشورات سمت، ١٣٧٩ هـ. ش.
١٣. الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، الناشر: أدب الحوزة، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١، ١٤٠٥هـ.
١٤. الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق مرعشي، ط٢، بيروت، دارالمعرفة، ١٤١٥هـ.
١٥. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٢، ١٤٠٨هـ، ج٣.
١٦. الراغب الأصفهاني، حسين: جامع التفاسير، تحقيق: أحمد حسين فرحان، الكويت، دار الدعوة، ١٤٠٥ هـ.
١٧. الصدر، محمد باقر: دروس في علوم الاصول.
١٨. الصغير، د. محمد حسين علي: المستشرقون والدراسات القرآنية.
١٩. بيضون، لبيب: التفسير التجزيئي والتفسير التوحيدي (الموضوعي) للقرآن الكريم، (غير منشور)، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، الرقم ١٨٦.
٢٠. السبحاني، الشيخ جعفر، كتاب «هرمنوتيك».
٢١. الطوسي، محمَّد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٤.
٢٢. الحكيم، محمَّد باقر: علوم القرآن.
٢٣. الصدر، محمد باقر: فلسفتنا.
٢٤. الصدر، محمد باقر: اقتصادنا.
٢٥. الصدر، محمد باقر: الأسس المنطقية للاستقراء.

المجلات والدوريات:

٢٦. مجلة الكلمة الطيبة السنة (١٨) العدد (٢٩) للسنة ٢٠١٤م، التفسير الموضوعي عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره –دراسة مقارنة مع الطرح الهرمنيوطيقي –تأليف د. علي أصغر يساقي.